مبادرة الإصلاح العربي

بدائل سياسات، 6 كانون الأول/ ديسمبر 2017

مسيحيو حلب: المسار والمآل

← روجيه أصفر



صورة للدمار الذي حل بكنيسة القديس مار أسيا الحكيم في حلب، سوريا، شباط/فبراير 2017. © Youssef Badawi / EPA

بعد مرور ست سنوات على بداية الثورة السورية سنة 2011؛ تستقرئ هذه الورقة تاريخ المسيحيين في مدينة حلب خلال القرنين المنصرمين، لتستعرض أهم الحوادث التي أثرت في ذاكرتهم الجماعية، خاصة تلك التي اعتبرت اضطهاداً أو تهديداً لهم كأفرادٍ وجماعة لها مميزاتها في مجتمعها المحلي، ومن هنا تنطلق لتجيب على مسببات موقفهم السلبي بنسبة كبيرة تجاه الثورة التي أفرزت تغييرات جذرية مادية ونفسية أصابت سوريا ككل وحلب كجزء أساسي من هذا البلد، لتبين حقيقة هذا الموقف إن كان تأييداً صرفاً لديكتاتورية سادت لعقود، حكمت البلد بالحديد والنار، أم استرجاعاً لماضٍ لم يكن فيه لأفراد هذه الجماعة اطمئنان – من وجهة نظرها – تجاه مواطني مدينتهم وما يمثلونه.

قومة البلد

تسببت معاملة إبراهيم باشا الجيدة للمسيحيين في حلب بمضايقات بعض المسلمين عقب خروج الجيش المصري من المدينة، وربما كانت هذه الحوادث مؤسِّسة لـ "قومة البلد" سنة 1850، والتي أسفرت عن عدد من القتلى والجرحى المسيحيين بالإضافة إلى نهب عشرات البيوت وبعض الكنائس والمطرانيات وحرقها. الحادث الذي تعاملت معه السلطة العثمانية المركزية بحزم مقبول لم تكن السلطة المحلية على ما يبدو ملتزمة به تماماً، فلم يُحاسب المذنبون كما يجب رغم نفي بعض المشاركين والشخصيات، ولم يتم التعويض عن الخسائر بالكامل. ودفعت هذه الأحداث بالعشرات من الأسر المسيحية إلى مغادرة المدينة، وأورثت الباقين شعوراً مضمونه أن مسلمي مدينتهم لم يرق لهم خروج المسيحيين من وضع أهل الذمة إلى وضع المواطنين. وقد وبقيت الاضطرابات حاضرة في ذاكرة مسيحيي المدينة بعد مرور أكثر من قرن ونصف على حدوثها، يتناقلونها من جيل إلى آخر.

التنظيمات

رافق "قومة البلد" وأعقبها أحداث بالغة التأثير على وضع المسيحيين، فالتنظيمات العثمانية التي صدرت عن الباب العالي لإقرار مساواة بين رعايا السلطنة مواجهة لضغوط أوروبية؛ كثيراً ما بقيت حبراً على ورق ولم تلقَ قبولاً لدى كثير من المسلمين، وجاءت أيضاً أحداث سنة 1860 "طوشة الستين" التي اندلعت في جبل لبنان لتنتقل إلى دمشق؛ فكان المسيحيون ضحاياها على يد المسلمين والدروز، بينما عاش مسيحيو حلب على أعصابهم بانتظار تكرار سيناريو 1850، الأمر الذي لم يحدث رغم التهديدات والمحاولات. لكن الأخبار الواصلة من لبنان ودمشق عزّزت كل المخاوف المتراكمة.

في عهد السلطان عبد العزيز بدا أن المسلمين قد تقبلوا الوضع الجديد الخاص بالمسيحيين، فارتاح هؤلاء، وأسسوا "حي العزيزية" الذي احتفظ حتى اليوم برمزيته كمركز للمسيحيين، إلى جانب أحياء أخرى أتت لاحقاً كالنيّال والحميدية والسليمانية والجابرية. ومنذ سنة 1860 وما بعدها كان للمسيحيين في حلب دور واضح في الإدارات الرسمية، إذ حازوا في بعض المرات ثلث مرشحي المجلس البلدي، ونصف مجلس إدارة الولاية، كما تسلموا رئاسة غرفة تجارة حلب مراراً.

نهاية السلطنة

عاد القلق لينتاب مسيحيي المدينة بعض الشيء أواخر القرن مع قمع السلطان عبد الحميد الدموي للأرمن سنتي 1894-1895 أثناء "أحداث الزيتون"، واستقبال المدينة أعداداً من اللاجئين المسيحيين من الأرمن وغير الأرمن قادمين من منطقة مرعش. وانخرط مسيحيو المدينة في الخدمة العسكري سنة 1910 بعد أن كانوا منذ إلغاء الجزية يدفعون البدل على نحو جماعي تكافلي، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى اقتيد هؤلاء إلى الخدمة العسكرية –كما غيرهم – قسراً مما دفع بكثيرين إلى ارتياد طريق الهجرة، وهو ما ساهم على نحو مؤثّر مع المجاعات المرافقة للحرب وعدد ضحايا الخدمة العسكرية؛ في خفض أعداد المسيحيين في المدينة.

مع بدء مجازر الأرمن سنة 1915 توافد إلى حلب عشرات الألوف من الأرمن، ومنها انتقل جزء منهم إلى مدن أخرى كحماة ودير الزور. وبعد 3 سنوات تقريباً سمحت السلطات بعودتهم إلى حلب حتى بلغت أعدادهم 60.000 شخص، وكان لمسلمي المدينة دور يُشهَد له بحسن التعامل مع هؤلاء اللاجئين.

فتنة سوق الأحد

عيّن الجنرال غورو[1] أعضاء مجلس المديرين في حلب سنة 1920 مناصفة بين المسيحيين والمسلمين، ولعب المسيحيون دوراً وطنياً في الاصطفاف إلى جانب إبراهيم هنانو[2] والدفاع عنه خلال محاكمته التي انتهت بإعلان براءته سنة 1922، كما شاركوا بفعالية في "الكتلة الوطنية".[3] في تشرين الأو/لأكتوبر 1936 قامت "فتنة" سوق الأحد بين المسيحيين والمسلمين التي قُتِل فيها مسيحيان ومسلم، ووفق مصدر آخر مسلمان و3 أرمن بالإضافة إلى عشرات الجرحى، فاستعادت الذاكرة حوادث 1850 و1860 على الفور. تم احتواء الفتنة بجهود شخصيات مسلمة من المدينة، وبدا أن الخلاف اندلع بشرارة من منظمة شباب كاثوليكي، تُسمّى "الشارة البيضاء" تتبنى أفكاراً طائفية ولا تتمتع بالاحترام لدى أوساط واسعة من المجتمع المسيحي، وكانت "فتنة سوق الأحد" السبب في طي صفحة هذه المنظمة وإلغاء وجودها، بعد أن تم

تداول أخبار كثيرة عن جهات مخابراتية تقف وراءها، خاصة أن رئيسها كان موظفاً في الجيش الفرنسي ورئيساً لفرقة مخبرين في مدينة حلب.

مرة أخرى ساهمت هذه الحادثة في دفع عائلات مسيحية إلى مغادرة الأحياء التي سكنتها قبلاً إلى أحياء ذات طابع مسيحي، خوفاً منها على أمنها وراحة بالها في حال تكرار فتن مشابهة. وهكذا، مع نشوء الأحياء المسيحية الجديدة آنفة الذكر؛ تكرس على نحو تدريجي واضح، الفصل السكني بين المسيحيين والمسلمين في المدينة، فلم يبقَ في المدينة القديمة (داخل الأسوار) إلا ما ندر من العائلات المسيحية التي ما تزال سجلات نفوسها حتى يومنا هذا تشهد على أماكن سكنها القديمة.

الاستقلال والوحدة

سنة 1945 قامت مظاهرات ضد الفرنسيين تم خلال بعضها الاعتداء على أديرة مسيحية، وقيل إن الإنكليز كانوا يقفون وراء الاعتداء، وهم فعلاً قاموا بعرض حمايتهم على مطران الروم الكاثوليك الذي رفضها رفضاً قاطعاً.

ثم تنديداً بحرب السويس كانت مظاهرات 1956 التي أسفرت عن حرق مدارس ومعابد مسيحية. وقد خفّفت من هذا التعدي الذي كان له وقع شديد السوء على مسيحيي المدينة، تدخلاتٌ إيجابية لشخصيات مسلمة، وقفت بوجه المتظاهرين المعتدين. ولم تُعلن نتائج تحقيق اللجنة العسكرية الموكلة بالأمر.

حكم البعث

- كان لتأميم الملكيات الزراعية والمعامل منذ سنة 1958 – والذي أصاب المسلمين كما المسيحيين – أثر بالغ السوء على الجميع بمن فيهم المسيحيين الذين غادرت دفعة جديدة منهم البلاد إلى لبنان والمهجر. هذه المرة كان المهاجرون من النخب المالية والتجارية والصناعية والثقافية، وبهم فقدَ المجتمع المسيحي الحلبي جزءاً مهماً من قادته الفعليين والمحتملين وشريحة من أبنائه الأكثر وعياً.
- شكّل الاستيلاء على المدارس الخاصة سنة 1967 ضربة للمجتمع المسيحي الحلبي لا يُقدِّر كثيرون اليوم عظم تأثيرها، فقد أضعف هذا الأمر ثقة المسيحيين بدولتهم وأفقدهم الحق بالتعليم الخاص، وشكّك ضمناً في وطنيتهم، وألغى الدور التنويري المشهود له لهذه المدارس التي ساهمت إسهاماً مباشراً في دعم العيش المشترك بين أبناء المدينة. وقد تفاعلت القضية وصولاً إلى حكم القضاء بعد سنوات، في مطلع عهد حافظ الأسد، بعدم

شرعية الاستيلاء على هذه المدارس وبوجوب ردّها إلى أصحابها،[4] ودقّت أجراس الكنائس في المدينة فرحاً بالحكم العادل الذي ما زال ينتظر التنفيذ حتى يومنا هذا. الجدير ذكره هنا، أن موضوع إعادة المدارس لأصحابها يُعاد فتحه خلال بعض المناسبات مع المسؤولين الحزبيين، والجواب المتكرر هو أن الدولة تثق بالمسيحيين وبوطنيتهم وبمدارسهم، لكن إعادة المدارس ومنحهم رخصاً للتعليم سيوجب منح "الآخرين" رخصاً مماثلة، وهم ممن لا تثق الدولة بهم لتطرفهم.

- جاءت الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1975 – وغزو العراق أيضاً بعد عقود – لتذكر المسيحيين بدقة وضعهم في المنطقة، وقد كان لطول مدة الخدمة العسكرية الإلزامية والاحتياطية خلال فترات التوتر 1967، 1973، 1975 وما بعدها، دور في دفع شريحة أخرى من المسيحيين إلى الهجرة.
- منذ أواخر السبعينيات حتى سنة 1982 وقع ما سُمي بـ "أحداث الإخوان المسلمين"، وقد شكّلت هذه الأحداث حلقة جديدة في ترسيخ ذاكرة الخوف المسيحي من الآخر/المسلم. فصارت كلمة "إخونجي" مرادفاً للإرهابي والمتطرف، في شيطنة كاملة شبه تعميمية للآخر؛ رغم أن هذه الأحداث لم تستهدف مسيحيين بوصفهم مسيحيين.

الذاكرة المسيحية الجماعية ودور الكنيسة

خلال كل هذه الأحداث الطائفية منذ أيام السلطنة العثمانية مروراً بمرحلة الانتداب الفرنسي فالاستقلال وصولاً إلى حكم حزب البعث؛ لم تكن بنية ذاكرة مسيحيي المدينة بنية موضوعية، وهذا أمر مفهوم. فبعيداً عن خطابات العيش المشترك البروتوكولية؛ أظهرت الأحاديث المتداولة في الغرف المغلقة أن هذه الذاكرة كانت انتقائية، فالجدات ينقلن عن أسلافهن هتاف مسلمين خلال فتنة 1850 بعبارة: "أجى يومكون يا نصارى"، لكن دور مسلمين آخرين في حماية جيرانهم المسيحيين ومساعدتهم، والوقوف في وجه العامة خلال "فتنة سوق الأحد" حماية للمسيحيين، ورد المتظاهرين عن حرق المدارس المسيحية خلال مظاهرات 1945 و1956، لم يحضر في الذاكرة الشعبية إلا فيما ندر، وبقيت مخطوطات المعاصرين، وشهادات مراقبين خارجيين المصدر الوحيد لهذا الدور الإيجابي.

في هذا الإطار، لم تمارس الكنيسة من خلال أدواتها التي كانت تتمتع بها دوراً توفيقياً وتوعوياً بين أبناء الدينين، إلا في حالات كانت قصيرة العمر أو مقتصرة على نخب محدودة التأثير لأسباب مختلفة.

ولم تنجُ الكنيسة المحلية التي نخرها الفساد من تدخلات رجال الأمن والمخابرات

وتضييقاتهم، مما جعل من بقي صامداً فيها في وجه التيار الشمولي الصاعد، ينكفئ بدوره، وشيئاً فشيئاً بدأت الكنيسة تشبه بشكل أو بآخر النظام الحاكم لجهة المحسوبيات والفساد وضعف النوعية.

أعداد المسيحيين في المدينة:

التاريخ	مسلمون	مسيحيون	يهود	إجمالي	ملاحظات
1821	-	-	-	400.00	
1890	-	-	-	120.000	
1900	69.646	27.060	7.666	104.372	نسبة المسيحيين 26%
1901	76.329	24.508	7.306	108.143	نسبة المسيحيين 22.5%
1922	100.000 تقريباً	50.000 تقريباً			

مبادرة الإصلاح العربي

الكاتب/ة

روجيه أصفر
صحفي وباحث سوري.

عن مبادرة الإصلاح العربي

مبادرة الإصلاح العربي مؤسسة بحثية رائدة للبحوث الفكرية المستقلة، تقوم، وبشراكة مع خبراء من المنطقة العربية وخارجها، باقتراح برامج واقعية ومنبثقة عن المنطقة من أجل السعي الى تحقيق تغيير ديمقراطي. تلتزم المبادرة في عملها مبادئ الحرية والتعددية والمساواة بين الجنسين والعدالة الاجتماعية. وهي تقوم بالأبحاث السياسية، وتحليل السياسات، وتقدم منبراً للأصوات المتميّزة.

- ننتج بحوث أصيلة يقدمها خبراء محليون، ونتشارك مع مؤسسات عربية ودولية لنشرها.
- نشجع الأفراد والمؤسسات على القيام بتطوير رؤيتهم الخاصة للحلول السياسية.
- نعبئ الأطراف المعنية لبناء تحالفات من أجل إنجاز التغيير.

هدفنا أن تشهد المنطقة العربية صعود وتنمية مجتمعات ديمقراطية عصرية.

تأسست "مبادرة الإصلاح العربي" عام 2005 ويشرف على عملها مجلس الأعضاء والهيئة التنفيذية.

arab-reform.net

contact@arab-reform.net

©2017 – مبادرة الإصلاح العربي
للإطلاع على شهادة حقوق التأليف والنشر، اضغط/ي هنا: